المحاضرة الأولى :

من الفلسفة الحديثة إلى الفلسفة المعاصرة

ما يجب معرفته منذ البداية، أنه من الطبيعي أن تختلفت مفاهيم الفلسفة من عصر إلى آخر، بل قد تختلفت داخل العصر الواحد، ولعل هذه الطبيعة الخلافية، ميزت تاريخ الفكر منذ بدايته الأولى في الزمان والمكان، إذ نجد الفكر اليوناني، قد تمكن من إبداع فلسفي للمفاهيم العقلية عندما تحرر فكر الفلاسفة من هيمنة الأساطير، فأخذوا يفسرون ويتأملون في الأشياء – في ظاهرها وباطنها- وما تكتنفه من حقائق في ذاتها وجعلها تنسجم مع حياة الإنسان الفكرية والعملية، إذ تمكن هذا الفكر من فتح أبواب التفلسف الراقي، لهذا اعتبرت الفلسفة اليونانية مرجعية عالمية استندت إليها الفلسفة الإسلامية والفلسفة الوسيطية المسيحية والفلسفة الحديثة إلى تأثيرها في الفكر الفلسفي المعاصر، فما طبيعة هذه التحولات؟

تعتبر المرحلة الحديثة مرحلة حساسة من حيث التحولات الكبرى التي نسجها الفلاسفة على ضوء انتماءاتهم الفكرية والمذهبية، لذلك كانت الطبيعة الخلافية موجودة على مستوى تعدد المذاهب الفلسفية،" وهذا ما يقدمه لنا تاريخ الفلسفة على أن هناك مذاهب فلسفية تتعدد بتعدد الفلاسفة، يتفق بعصها مع البعض الآخر في خطوطها الأساسية، وإن اختلفت في بعص تفاصيلها، لكن قد تختلف مذاهب أخرى فيما بينها حتى في خطوطها الأساسية مذاهب أفطون وديكارت وليبنتز مختلفة متميزة لكن بينها اتفاقا في خطوطها العريصة"[1]، هذه التحولات كانت لها تداعياتها منذ عصر النهصة، إذ " وافقت هذه المذاهب العظمى الحديثة عصر النهضة على هدم يقينتي العصر القديم والعصور الوسطى وإن كانت هي نفسها قد ورثت تلك اليقينية عينها حين أعلنت أنها وصلت إلى المعرفة المطلقة، و صرحت بأنها وضعت مبادئ تصلح أسساً ثابتةو لا تحتوي على مشكلات يراد حلها. ولقد برهن أصحاب هذه المذاهب على قوة في التفكير، ونشاط في البحث، ويقين في العلم، وثقة بالعقل البشري إلى حد لم يعرف له نظير في تاريخ الفلسفة في جميع عصورها"[2] وبهذا كان سعي المذاهب الفلسفية محاولة تقديم صورة وافية عن مسألة الانخراط في مختلف المشكلات المعرفية والسياسية والاخلاقية والدينية .

كل هذه العوامل أسهمت في نشأة الفلسفة العقلانية عند "ديكارت" التي حاولت بطريقتها الخاصة، إنارة الفكر بمعالم الوضوح والدقة في قبول الحقائق الصادقة وتمييزها عن الحقائق الغامضة، وجعل الفلسفة حاوية

للحقائق الكلية ومصدر مختلف المعارف التي يحتضنها عقل الانسان، " بما في ذلك الرياضيات التي تعتبر ممارسة عقلية بامتياز لكونها تتمتع بصرامة منهجية لا نظير لها، لأنها العلم الذي يطبق في دراسة الطبيعة"[2]، لكن هذه الفكرة لم ترض توجهات "الفلاسفة الوضعيين" في الفترة المعاصرة، فجعلتهم ينظرون للفلسفة نظرة سلبية، ويرفضونها باسم العلم، على اعتبار أن العلم مبني على الاتفاق وأن معارفه يقينية، وتتقبلها جميع العقول البشرية.

إن التيار الفلسفي التجريبي، كان يستهدف وضع حجر الأساس لممرات الفكر التنويري الذي يأخذ صوره من الواقع الخارجي والداخلي للإنسان كتمهيد لإحداث ترميمات فكرية تتجلى وقائعها على التغييرات المرتقبة على المستوى العلمي والسياسي والاجتماعي والديني والثقافي الذي يبشر بعهد متقدم لمراحل التجربة الإنسانية التي تقوم على خلخلة القواعد الميتافيزيقية التي سجنت مفهوم الذات داخل حصون الأفكار الفطرية، ولهذا تمكن "دافيد هيوم " من جر "الذات الديكارتية" إلى تحليل محتواها المعرفي، فلم يعتبرها جوهرا ثابتا، بل عمل على تجفيف منابعها الميتافيزيقية. ومن هنا أعطت الفلسفة التجريبية الأضواء الأولى "للفلسفة التحليلية"* المعاصرة أن تجد رهانها في العلم وتعمل على تثبيت جذورها الفكرية عن طريق المكاسب اللغوية.

لم تكن "فلسفة كانط" فلسفة انقضت مع زمنها، ولكن تعد تاريخيا فلسفة أنجزت البعد النقدي الذي يعطي للفكر هويته الجديدة في الممارسة النظرية والعملية، بحيث قامت بإمداد مفاهيمي وفلسفي من الحجم الكبير الذي لم ينطفء وهجها ومفعولها، لأنها تمتلك مقاومة مستمرة لا تزال تسجل حضورها في الفلسفة المعاصرة التي تستخدم إستراتيجية النقد في مختلف القضايا الابستيمولوجيا والأخلاقية والسياسية والدينية. فالتفكير في مسألة العقلانية النقدية فرض على الفلسفة ألا تغيب عن التحولات الكبرى التي يسجلها العلم في عصرها، لهذا وجب عليها في نظر "كانط" أن تعود مرة ثانية إلى السؤال عن نفسها وتحديد مهمتها، لأن المفاهيم الجديدة التي أطلقتها تعد بمثابة المواد التي يتأسس عليها البناء الفلسفي للعقلانية، وجعل هذه المفاهيم تطوف حول العقل النظري والعقل العملي والقبلي والبعدي وما هو متعالٍ وما هو تجريبي.

هذه المفاهيم قذف بها إلى ساحة النقاش الفلسفي والسجال الفكري الذي سمح للفلاسفة بإعادة قراءة النص الكانطي قراءة حية تستجيب لدواعي

فكرية حاضرة، لأن الفلسفة مهما كانت قيمتها؛ فإنها تحيا بالنقد وتموت من غير نقد، هكذا كان حال "فلسفة كانط" التي كثر فيها الجدال حول كيفية التوفيق بين المبادئ العقلية الصورية للمعرفة والمصادر الخارجية الحسية التي تأتي منها مواد المعرفة، وهذا ما جعل مؤرخو الفلسفة، يعتبرون أن القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر عصر جدال بين العقلانيين والتجريبيين.

لا يغيب على المهتمين بالشأن الفلسفي، أن فلسفة "هيجل" شهدت عودة قوية واهتماما لا مثيل له، ومصدر هذا الاهتمام، هو أن الفلاسفة أجمعوا على أن هذه الفلسفة مازالت تتمتع بخصوبة فكرية تم استثمارها في قطاعات فكرية واسعة، امتدت في مساحات اجتماعية وتاريخية ودينية تشع منها الروح التي توقظ الضمائر الفلسفية الفاعلة في التيارات الغربية المعاصرة، التي أعلنت رغبتها في الذهاب بالفكر الفلسفي والنظر العقلي إلى مناطق اجتماعية وثقافية أكثر تحررا ووعيا بالمرحلة الراهنة، حيث احتضنتها التيارات الماركسية بكل طوائفها فقلبتها رأسا على عقب، فأصبح فيها الجانب المادي هو الذي يحدد مختلف الميادين الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والثقافية، فعملت بكل ما أتيت من قوة على وضع مفاهيم فلسفية وعلمية نابعة من صلب الواقع المادي للحياة الإنسانية.

اعتبر القرن التاسع عشر بمثابة مرحلة انتقالية من العصر الحديث إلى العالم المعاصر، ينطبق هذا بشكل خاص على تاريخ الفلسفة. فالخيوط المفهومية التي حيكت في القرن التاسع عشر كانت أيضا جزءا من لحمة التأمل الذي تواصل في الفكر الفلسفي المعاصر، لأن الفكر في هذه المرحلة بدأ يشهد تحولات عميقة حين تشكل في ظل وجود حساسية متنامية لاقتحام الأنساق الفلسفية التي شيدتها الفلسفة العقلانية والتجريبية والقيام بمراجعة الكثير من المفاهيم التي عششت داخل الفكر الفلسفي السابق، يقول المفكر "عزمي إسلام"في كتابه اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ما يلي:" نحن لا نكاد نجد لدى أغلب الفلاسفة المعاصرين هذه الأنساق الفكرية الهائلة والمذاهب الفلسفية الضخمة التي نجدها في الفلسفات التقليدية. إنما نجد نزعات تحليلية يتوخى أصحابها الاهتمام بالمنهج ويحرصون حرصا شديدا على الوضوح في الفكر والمعنى، وكذلك الدقة البالغة في استخدام اللغة وأساليب التعبير"[1].

هذا التحليل يعدُ بمثابة الأسلوب المعرفي الموجه إلى روح الفلسفة، بحيث يكون مركزا على بيان قيمتها في توجيه النشاط العلمي، سواء أكان

ذلك الطرح من قبل التيار العقلاني أو التيار التجريبي أو الوضعي، مع العلم أن "أساس الوضعية المنطقية هو تحليل اللغة سواء اللغة الطبيعية العادية، أو اللغة العلمية واللغة الفلسفية، لأن أصحابها يزعمون أن الخلافات بين الآراء والمذاهب الفلسفية، إنما ترجع إلى سوء فهم أو سوء تحليل للتصورات الفلسفية، وكأن المشاكل الفلسفية ما هي إلا خلافات ناجمة عن اشتراك في معاني الاصطلاحات الفلسفية " [2].

غالبا ما يربط مؤرخو الفلسفة بداية الفلسفة المعاصرة ببداية المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر. ومن أهم الأحداث التي عرفتها الفلسفة المعاصرة هناك حدثان بارزان : يتمثل الأول في الثورة العلمية في مجال العلوم الدقيقة كالرياضيات و الفيزياء والبيولوجيا التي أخذت في التوسع بشكل متسارع جدا. ويتمثل الثاني في ظهور ما يسمى بالعلوم الإنسانية كعلم النفس و علم الاجتماع و الأنتربولوجيا التي بدأت تفرض نفسها بقوة على الساحة الفكرية. وقد استفادت الفلسفة المعاصرة من هذين الحدثين فاتجه اهتمامها أولا إلى دراسة ونقد المعرفة العلمية في إطار ما يسمى بالدّراسات الإبستيمولوجية أو فلسفة العلم، بالإضافة إلى الأبحاث اللّسانية، واتجه اهتمامها ثانيا إلى دراسة الإنسان والاهتمام بقضاياه الأساسية كمسألة الإدراك والوعي وعلاقتها بالعالم، وكذلك البحث عن معنى الوجود الإنساني، ومعالجة قضايا الإنسان السياسية والاجتماعية. كما يمكن أن نشير أيضا إلى اهتمام كثير من الفلاسفة المعاصرين بنقد المفاهيم الفلسفية الكلاسيكية في محاولة منهم لتجاوز الفلسفة الميتافيزيقية ومحاكمة قضاياها وإعادة الاعتبار للجوانب المهمّشة واللاّمفكر فيها. "الفلسفة الغربية في القرن العشرين الميلادي، أي الفلسفة الغربية الحالية بالعنى الحقيقي إنما ظهرت أساساً من المجابهة مع الفلسفة الغربية الحديثة ، وهي مجابهة فيها اختلاف وصراع، ولكنها تحتوي أيضاً على عنصر الاستمرار وعلى جهد من جانب الفلسفة الحالية في محاولتها أن تتمايز عن الفلسفة الحديثة وأن تتعداها.لذلك، فلابد، من أجل فهم هذه الفلسفة الحالية، فهي معرفة الماضي" [1]

من هنا شعرت الفلسفة المعاصرة، بأن هناك مهمة جديدة تنتظرها أكثر من أي وقت مضى، إنها تشتغل على تفكيك الميتافيزيقا التقليدية ومحاولة نسف المفاهيم الكبرى التي تقف خلفها وإماطة تلك الأقنعة عنها، فلم تتردّد طموحات الفلاسفة أن تجد فتحا معرفيا في مسالك النقد والهدم للأنساق الفكرية العتيقة التي اعتنقت صور العقلانية وإحلال مكانها اللاّعقلانية وجعلها العقلانية المقبلة التي سيطل عليها أفق الفكر الفلسفي المعاصر في

العمل على زحزحة المفاهيم الكبرى من مواقعها: كالعقل، الأخلاق، الدين، الحرية، وكل المقولات المركزية التي انبنى عليها تاريخ الفكر الفلسفي كمقبرة مفتوحة تستوعب الاستعارات الميتة.

خاتمة:

لقد كان السجال الذي وقع حول المعرفة في العصر الحديث ينبئ بوجود خلافات عميقة حول نوعية الطرح الفلسفي الذي تقدم به الفلاسفة في مواجهة مختلف التأثيرات الدينية والسياسية التي مر بها المجتمع الأوروبي آنذاك، لذلك كانت الفلسفة الديكارتية بوابة فلسفية مهمة في تاريخ الفكر الفلسفي ، فحظيت بمكانة متميزة في الفلسفة بوجه عام وفي الثقافة الفرنسية بوجه خاص، إذ أشّرتْ بدورها التأسيس للحداثة الفكرية حين خاضت بقوة في مسائل عقلية وميتافيزيقية لها صلة مباشرة بنظرية المعرفة وممارسة الشك في الموروث الفلسفي الذي تركته ثقافة العصور الوسطى، لذلك كان شعارها الوضوح واليقين في تحصيل المعارف وطلب الحقيقة، هذا ما جعل هذه الفلسفة العقلية تتمركز حول مفهوم الذات وتأسيسها من حيث بدايتها التاريخية والفلسفية.

أما التيار التجريبي، فقد نجح في مشروعه الفلسفي حين خالف ما ذهب إليه التيار العقلاني في ما يخص المداخل التي قدمها حول تصوره لنظرية المعرفة، فكانت تجريبية "جون لوك " ممرا فلسفيا مهما في وضع حجر الأساس للفكر التنويري والعودة إلى منابع التجربة واستثمارها في فهم الظواهر الطبيعية وإعادة تشكيل مفهوم المعرفة، كما فعل أيضا "دافيد هيوم " الاستئناس بالتجربة والقيام بخلخلة القواعد الميتافيزيقية التي سجنت مفهوم الذات في حضن الأفكار الفطرية، إذ تمكن من هذا الباب جر الذات الديكارتية إلى محاكمة معرفية من خلال تحليل محتواها المعرفي وتغيير مفهوم الجوهر وتجفيف منابعها الميتافيزيقية التي كانت تتغذى منها، لهذا أعطت الفلسفة التجريبية ديناميكية كبيرة لنظرية المعرفة في جانبها النفسي حين تفطنت في تقدير قيمتها، فكانت بمثابة الأضواء الأولى في تغيير المناخ الاجتماعي والسياسي والديني الذي عاشه الفكر الأوروبي.

أما الفلسفة الكانطية، فقد رسمت معالم جديدة تمركزت حول تأسيس مفهوم النقد الذي اعتبره "كانط" بمثابة إستراتيجية قوية في رسم خارطة فكرية ذات دعائم قوية في مواجهة الإرث العقلاني والتجريبي، لهذا تعد

هذه الفلسفة تاريخيا فلسفة نقدية بامتياز، كونها نقلت الهموم الإشكالية من العقل النظري إلى العقل العملي، وتناولت بشكل دقيق المسائل الأخلاقية والسياسية والدينية، فتمكنت إلى حد بعيد من تأثيث نظرية المعرفة بمفاهيم جديدة، كمفهوم القبلي والبعدي والترنسندنتالي...، هذه التحولات الفكرية فرضت نفسها بقوة على الساحة الفكرية، فجعلت مفهوم الفلسفة يتحول من محبة الحكمة إلى حكمة مؤسسة على علوم عصرها، لهذا كان النقد الذي تبناه "كانط"، نقدا مقوضا لكل التصورات والنظريات التي سادت في عصره، فجعل الفلسفة تنفتح على المنجز العلمي.

كل هذه التحولات العميقة التي سجلتها فلسفة "هيجل" و"ماركس" و"انجلز"من انجازات فلسفية وعلمية في المرحلة الحديثة في الأبعاد الروحية والمادية الاقصادية والاجتماعية، قد حصلت بفضل تناول نظرية المعرفة في ضوء الطرح الإشكالي والابستيمولوجي، فترك بنية العقل الفلسفي تستفيد من التغيرات التي أحدثها العقل العلمي في تصوراته الابستيمولوجية الناشئة في وقت مبكر جدا، فأضحت هذه المساحات المعرفية مفتوحة بشكل واسع على النقد الابستيمولوجي الذي مس عمق الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية في الآونة المعاصرة وتحول قبلة الاستثمارات الفلسفية من(الذات) الوعي إلى بروز فلسفات اللاوعي ومحاولة الحفر في مفهوما النفسي والاجتماعي والأنتروبولوجي والألسني.

هذه المقاربة الفلسفية قد شخصت بصورة منطقية محددة الأوضاع المعرفية والتقلبات الابستيمولوجية في صورتها الإشكالية، فمنحت تيارات ما بعد الحداثة فرص استثمار هذه الأرضية الفكرية والعلمية التي ألهمت الفلاسفة أدوات مفاهيمية ومنهجية في رصد مجريات الاستفادة من الثورة العلمية في مجال العلوم الدقيقة، كالرياضيات والفيزياء، وكذا امتدادها في مجال العلوم الإنسانية، هذه الوراثة الفكرية والإشكالية كانت محل اهتمام الفلسفة المعاصرة في إثارة مشكلاتها المعرفية والمنهجية .

المصادر والمراجع:

- محمود زيدان: مناهج البحث الفلسفي.

– محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، دار احياء الكتب العربية، مصر 1948.

– Paul Hazard : La pensée européenne aux 18 siècle, Ed. Fayard, 1993.

- * Robert Nadeau : Vocabulaire technique et analytique de l’épistémologie, PUF, Paris, 1999, p.484.

– عزمي إسلام، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980.
- عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت- لبنان، ط1، 1984.
- بوخنسكي: تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1979.